ميتة الثري ليست كميتة الفقير

الدكتور عبد الستار قاسم

ميتة الثري ليست كميتة الفقير بالنسبة للأحياء وليس بالنسبة للأموات الذين أصبحوا من التاريخ وفي عالم الغيب. رأيت جنازة ثري لئيم قد ازدحمت خلفها تظاهرة عارمة من المشيعين من مختلف فئات الشعب وتتقدمها الشخصيات المسؤولة المتنفذة. أما جنازة أحد عملاء إسرائيل البارزين من أصحاب النفوذ الاقتصادي فلم يكن الموكب الجنائزي يتسع للسيارات الفارهة والفاخرة التي أتى أصحابها للحصول على أجر التشييع الذي غالبا ما يكون دنيويا. لكن جنازة ذلك العالم الذي أفنى حياته يبحث ويدرس من أجل بناء الجيل والمجتمع فلم تستقطب الكثيرين من الباحثين عن أجر. أظن أن هذه ظاهرة عالمية وليست محلية وأكبر دليل على ذلك اهتمام العالم بسياسييه ووسائل إعلامه بأحداث 11/أيلول، سبتمبر.

من المؤسف بالتأكيد أن تكون هناك أحداث عنف وسفك دماء، ومن المفروض أن يعمل العالم ما أمكن من أجل تلافي سقوط الضحايا، لكنه من المؤسف أيضا أن يتم التعامل مع الأحداث بازدواجية أخلاقية أو ثلاثية أو رباعية كما هو حاصل الآن، فيتم تخليد البعض واستغلال الحادث الذي أودى بهم لأغراض ذاتية وسياسية بينما يتم تجاهل الآخرين. حصلت مجزرة صبرا وشاتيلا وسقط فيها عدد يوازي عدد الذين سقطوا في أحداث أيلول، ولكن بطريقة أكثر قسوة وإيلاما. مات الناس في البرجين خلال فترة قصيرة جدا بينما كان على الفلسطينيين في المخيمين أن يعيشوا أياما من الرعب والخوف الشديد انتظارا للرصاص الذي اخترق أجسادهم.

لم أجد وسائل الإعلام العربية والعالمية بعد عام من أحداث صبرا وشاتيلا يحشد طاقاته قبل فترة طويلة من الزمن من أجل إحياء الذكرى، ولم أجد تلك الحملة على الإرهاب والإرهابيين الذين نفذوا المجزرة. قادة إسرائيل استمروا قادة وأصبح شارون بطل المجزرة رئيسا للوزراء وعاش إيلي حبيقة ردها طويلا من الزمن دون هجوم عالمي عليه. نشبت حرب في أفغانستان بمشاركة العديد من الدول من أجل أهل نيويورك ولم تنشب من أجل أهل صبرا وشاتيلا. لا أعني بهذا أن العرب لم يقوموا بواجبهم ولم يشنوا الحرب على إسرائيل، وإنما أعني أن تخليد موتى العرب من المفروض أن يكون أهم من تخليد موتى الآخرين. لا طاقة للأنظمة العربية على صنع النصر، لكن لا بد أن لهم طاقة على تذكر موتى الهزائم.

لا يقل الإعلاميون العرب عموما وليس مطلقا في محاباتهم للغرب عن الأنظمة العربية حيث أنهم يتملقون وكأن جوائز أمريكية بانتظارهم. شاهدت على الفضائيات العربية كما شاهد الملايين غيري من العرب الإعلاميين العرب وهم يندفعون في تحليلاتهم وبث صور الفجيعة التي حصلت بطريقة مثيرة تتمشى مع السياسة الأمريكية التي تعمل على تصوير العرب والمسلمين على أنهم إرهابيين. كرست أمريكا جهودها من أجل صنع رأي عام عالمي مناهض للعروبة والإسلام من خلال الإعلام، وأعتقد أن عددا لا بأس به من أهل الإعلام العرب قد فعلوا ذلك أيضا. وقد يكون هؤلاء الإعلاميون أشد خطرا لأنهم يخاطبون العرب فيعملون على صنع صورة إرهابية حول الذات العربية والإسلامية. هذا ليس غريبا خاصة أن أصواتا تُسمع في الشارع العربي تتهم إسلاميين يناضلون ضد إسرائيل بأنهم إرهابيين.

الجندي الإسرائيلي فاكسمان عبارة عن مثال حي أمامنا حول تأثير الإعلام على مشاعر الناس وربما في النهاية على آرائهم وطريقة صياغة أفكارهم. اختطف هذا الجندي قبل عدة سنوات من قبل المجاهدين الفلسطينيين واستمر البحث عنه لعدة أيام. أغرق الإعلام الإسرائيلي خاصة والإعلام الغربي عامة السوق الإعلامية بقصص كثيرة ومؤثرة حول الجندي وعائلته، وتبع الإعلام العربي بحيث دخلت القضية كل بيت عربي. أنا نفسي رأيت فلسطينيين يدمعون على فاكسمان بسبب انشدادهم إلى الجوانب الإنسانية التي ركز عليها الإعلام. ولا أذكر إطلاقا أن مأساة عربي قد أخذت أبدا البعد الذي أخذه فاكسمان.

وقصة الأميرة ديانا ليست مختلفة تماما. امرأة اعترفت على شاشات التلفاز أنها زانية ولا علاقة لنا بها سوى غرامياتها مع عربي لا يمثل شيئا تاريخيا أو رمزيا للأمة العربية، لكن العديد من المحطات العربية أصرت على بث برامج خاصة عن وفاتها وحياتها وموكبها الجنائزي وأدخلت "فاجعة" موتها إلى قلوب الجماهير العربية. وتعامل الإعلام مع وفاة ابن الرئيس الأمريكي المغتال جون كينيدي بطريقة لا تختلف كثيرا على الرغم أنها أقل حدة.

يموت مفكرون عرب وعلماء لكنهم لا يرتقون إلى درجة ديانا في التغطية الإعلامية. فقط وفاة قادة أنظمة عربية قد تحظى بتغطية وافرة وذلك تبعا لاهتمام الغرب بذلك. إذا قل اهتمام الغرب بالزعيم العربي انخفض مستواه الجنائزي والعكس صحيح. وهذا ينطبق على العلماء والمفكرين الذين يقعون في قبضة الأنظمة ويتم وضعهم في السجون العربية. تخجل وسائل الإعلام إلى حد كبير من ذكر أسمائهم أو توظيف عدد من الحلقات لنشر قضاياهم وفضح الاستبداد العربي. هناك الآن عدد من المعتقلين السياسيين في الوطن العربي وهم أعلام وقادة فكر ويسعون بقدر اجتهادهم إلى تغيير الأوضاع في هذا الوطن من أجل أن يكون للأمة مستقبل ولتأخذ مكانها بين الأمم.

من الواضح أن الفكر التبعي لا يتوقف عند الزعماء العرب أو قادة الأنظمة، بل هو ممتد وله مقوماته وجذوره وأسبابه. من الصعب في هذا المقال الخوض في مختلف العوامل لكنه من المهم الإشارة إلى أنه من المحتمل أن التربية العربية هي الأساس الذي تنطلق منه التبعية. حسب تقديري، لا يسعى البيت العربي في تربيته التقليدية إلى تكوين الشخصية المستقلة التي تحترم نفسها وتعمل على استكشاف العالم من حولها بروح من المبادرة، وإنما يعمل على تكريس التبعية وتذويب الشخصية ضمن قوى خارجية مثل القبيلة أو الأب أو قوى غيبية مثل الجن والعفاريت. ينعكس هذا بالتأكيد على الإعلاميين ومختلف فئات المجتمع.

التبعية عبارة عن انهيار ذاتي وإلحاق بالآخرين. التابع يفتقر إلى المبادرة ولا يحترم ذاته ويبقى مقلدا ومحاولا مشابهة الآخرين. أي أنه لا يقرر ما هو حسن وما هو سيء وينتظر في أغلب الأحيان من الآخرين أن يقرروا له ما يجب أن يقول أو يفعل. من الضروري تغيير المنهاج التربوي في بلاد العرب حتى نعرف تماما أي زفة يجب أن نشارك فيها وأيها علينا أن نقاطع، ومن هنا إلى هناك يبقى من الضروري أن يحرص من فاتهم ميزان التربية القويم على استعمال القدرات التمييز لنعرف أيها الغث وأيها السمين. وإذا كان السياسيون خارج إطار الطاقة التمييزية للإنسان فإنه من الأجدر بأهل الصحافة والثقافة والعلم أن يحرروا أنفسهم من التقييد التربوي القديم منطلقين إلى التفكير الحر الذي سيقود حتما إلى تغيير جذري في أحوال الأمة.